الحقيقة؟ THE TRUTH?

«١١ سبتمبر الثاني»: يوميات العار

«السياسة هي فنّ المتاجرة بالعار!»

□ نزيه أبو عفش

«أُنجزَ» اغتيالُ الحريري، ولا أحد يريد أن يقرأ الرسالة.

«أُنجزَتْ» صياغةُ الزلزال، ولا أحد يريد أن يقرأ الرسالة.

لبنانيّو الاستقلال الثاني يَصْرخون: «برّا يا سوريا برّا...» وسوريّو البلاغة الوطنية يقولون: «جئنا حماةً ومُنْجدين.» ولا أحد يريد أن يقرأ الرسالة.

الشظايا أصابت الجميعَ، وهستيريا «القوقعة» تَفْتك بعقول الجميع، وخندقُ الحماية أوشك أن يتحول مقبرةً للجميع. ولا أحد يريد أن يقرأ الرسالة.

هنيئًا، وهنيئًا.

I ـ الخاتمة

بعد شهر من الزلزال

نعم، نحن أيضًا كنّا نتمنّى أن نَسْمع كلمة «شكرًا» من أفواه جيراننا اللبنانيين. لكنْ: على ماذا؟ ولقاءَ ماذا؟

ونحن أيضًا كنّا نتمنّى أن نودّع بالورود والأغاني بدل أن نَخْرج، أمام عدسات الكون الشامت، مَرْجُومين بصيحات الكراهية. لكنْ: لماذا؟ وعلى ماذا؟!

طوال عقود ثلاثة ونحن نتحاشى قراءةَ الحقيقة وإعرابَ الوقائع. بَذَلْنا كلَّ ما أَمْكن (من الدم والبلاغة) لنَخْطب ودَّ «الزعماء».. فحظينا بكراهية الشعب!

أهذا كلُّ ما استطعنا فعلَه؟

هذا كلُّ ما فعلناه.

وها نحن الآن على أبواب المحنة. ها نحن، مرةً أخرى وأخرى، واقعون في كمين المتاهة. كأنما ـ في كلّ مناسبة ومحنة ـ يتوجّب علينا، نحن الشعبَ المغلوبَ، أن نَدْفع ثمنَ أخطاء أنظمتنا ونسدِّدَ فواتيرَ الخيبات والألم وحمّى الصبر. ثم: عودة إلى نقطة الصفر.. بانتظار المحنة التالية.

علينا أن نَسْأل الآن (بالأحرى: نكرِّر ما سبق أن سألناه): ما الذي فعلناه ـ نحن أهلَ هذا البيت المثْخن ـ لنستحقّ كلَّ هذه المهانة؟! ما الذي فعلناه؟ ما الذي لم نفعله؟!

وإذ يقال الآن ـ في ما يخصّ لبنانَ تحديدًا ـ: «فَعَلْنا ما كان يجب أن...» يقول صوتٌ آخر: «بل فعلنا ما كان يجب ألاّ...» وأيًا كانت نسبةُ الصواب في مزاعم «الواجب» أو ادّعاءات «الاقتراف،» فإنّه يُمْكننا أن نعترف الآن، اعترافَ مَنْ يتألم ويَدْفع الضريبةَ، بأنّ المسافة بين خُيَلاء المستنجَدِ به وانكسارِ مَنْ يُطْرد غيرَ مشكورٍ على شهامته هي بالضبط المسافةُ بين الكرامة والمذلّة. هل ثمة مَنْ يتحمل المسؤولية ويدفع الثمن؟!

فَعَلْنا ما كان يجب أن.../سيقولون.

ونقول: نحن لسنا بُدلاءَ عن الله لنقومَ بحراسة مزارع الآخرين وبيوت الآخرين وأوطان الآخرين وجنون الآخرين (تحت أيّ ذريعةٍ... حتى ذريعةِ الأُخوّةِ والشهامةِ وسواها من مشتقّات الإنشاء الوطني).

أبدًا، نحن لسنا بُدلاءَ عن الله (الأَوْلى بالله أن يدير بالَه على رعيّته ويهتمَّ بأَل بيته). وهنا أستعيد ما سبق أنْ قلتُه في مناسبة أخرى: إذا كنّا قد هُزمنا في معركة الحرب وازدُرينا في معركة السلام، فلماذا نتوهّم الآن أنّنا على أرض لبنان ـ الشقيقِ أو الشقيّ ـ قادرون على كسبِ معركة الحرب وغسلِ الأخطاءِ القاتلة لمعركة السلام؟!

من هنا ـ من داخل هذا البيت الذي يَضيق ونُحبّ ـ يتوجّب الإعدادُ للنصر... إذا كان ثمة نصرٌ موعودٌ ما. وهنا ـ داخلَ هذا البيت ـ يتوجّب ترتيبُ المعادلة المشرِّفة للفوز بنعمة السلام... إذا كان ثمة مَنْ يَرْغب في التصدّق علينا بهذه النعمة.

لقد كان دخولُ جيشنا إلى لبنان مثارَ جدل كبير في أوساط الناس ـ مثقفين وساسةً ومواطنين عاديين. وإذا سَلّمنا الآن بضرورةِ ذلك الدخول أو التدخّل، فما من أحد الآن ـ الآن: أقصد الأمس ـ يستطيع التسليمَ بضرورة التشبّث والبقاء.

كان علينا، حفاظًا على كرامة الجيش والشعب معًا، أن نَخْرج منذ ثلاث عشرة سنة (بل وأكثر...) من دون أن ننتظر اللحظةَ التي يُرغَم فيها كلُّ مواطن على دفع ضريبة المهانة والإذلال. نستطيع أن نتفهّم ضراوةَ صراخ اللبنانيين في ساحة تحريرهم: «برّا.. برّا...» إنهم لا يَقْصدون جيشَنا ورجالَ استخباراته فحسب، بل يَقْصدون «السوري» دونما استثناء.

ما كان يجب أن نحميَه تحوّلَ فجأةً محميّةً، والمحرِّرُ ـ في نظر أهل البيت ـ تحوّل غازيًا. وهكذا توجّب أن نَخْرج صاغرين.

نعم: لقد خرجنا صاغرين، بعد أن فَوّتْنا على أنفسنا فرصةَ الخروج اللائق، تحفّ بنا مواكبُ الوفاء والشكر. وإلاّ فبأيّ صيغة أخرى يُمْكن إعرابُ ما حَدَثَ ويَحْدث: الجنود ـ أبناؤنا وإخوتنا وأصدقاء قنوطنا ـ ينسحبون على ظهور شاحناتهم المريضة، والناس ـ تحت وطأة الإحساس بالمذلة ـ تتشقّق قلوبُهم وأدمغتُهم أمام شاشات التلفزيون التي تَقْصفهم بالحقائق دونما شفقة أو تَفَهُّمٍ أو نأمةِ غفران.

راياتٌ شامخة وقلوبٌ منكّسة: تلك كانت الصورة. ونريد تفسيرًا.

نريد ما يضمّد الكرامةَ ويوقف نزيفَ الجرح. بل وأكثر: نريد من أحدٍ ما

إذا كان من واجبنا حقا حمايةُ لبنان، فمن واجبنا قبل ذلك التطلع إلى حماية سوريا

أن يتبنّى لقيطَ الخطيئة ويَدْفعَ الثمنَ، ثمنَ الإهانة أولاً، وأولاً أيضًا: ثمنَ إخراج الشعب اللبناني من بيت العائلة الكبير.. بيتِ الصداقة الذي يتصدّع.

المهانة التي قصفتْنا بها الفضائياتُ الشامتة لم تَسْقط على رأسِ جيشنا فحسب (وهذا من بعض مهامّه أحيانًا) بل على رؤوس الشعب كلِّه... تحديدًا.

نعم، كنّا نتمنّى أن نَسْمع كلمة «شكرًا.» لكنْ.. على ماذا؟

لقد تحاشيْنا «زعلَ» أمراء السياسة ومقاوليها، فحظينا بكراهية الشعب.

أعتقد (ولستُ الوحيدَ) أنّه لم يبقَ أحدٌ في لبنان إلا وصَبَّ جامَ كراهيته على سوريا، وعلى شعبها أحيانًا، حتى أولئك الذين قالوا ـ وفاءً أو استحياءً أو تسليمًا ـ : «شكرًا، سوريا...» لكنْ، ثمة كثيرون (مئاتُ الآلاف من شعب لبنان) قالوا: «شكرًا لسوريا...» وقالوها من القلب.

هؤلاء، بتصنيف علماء الأجناس اللبنانيين، كانوا مجرَّدَ «أغنام.» والأغنامُ لا يُعتدّ بأصواتها في حسابات القضايا الكبرى.

فإذًا: هل ثمة مَنْ يتحمّل المسؤولية ويَدفع الثمن؟

بلى، ربما الشعبُ مرةً أخرى.

.. .. ..

أكرِّر: نحن لسنا بُدلاءَ عن الله. بل.. ولسنا رُسُلَه ومُسَحاءه لنتلقّى الصفعةَ ونديرَ الخدَّ. نحن بشر يتألمون ويغضبون ويُوجعُهم جرحُ الكرامة. إذًا، فلنسمعْ ونتوجّعْ:

«مواطنون لبنانيون يُحَطِّمون تماثيلَ الزعيم السوري، إلخ...»

لم يسبقْ لي، طوال حياتي، أنْ عملتُ غارسونًا لدى النظام الحاكم في سوريا.. ولن يَحْصل ذلك في ما بعد. لكنّني، مثلَ كثيرين من مواطني سوريا الذين تابعوا عمليةَ الفتك على شاشات الفضائيات، كنتُ أَشْعر أنّ طعنات الفؤوس الحانقة لم تكن تصيب النحاسَ والحجرَ فحسب، بل ولحومَنا أيضًا.. نحن الذين نتفرّج على تهشيمِ ما يُفترض أنّه رموزُ كرامتنا الوطنية ذاتها.

تُرى ـ أمام هذه المذبحة المعنوية ـ مَنِ الذي يستحقّ كراهيتَنا أكثر: مرتزقةُ لبنان المنافقون الذين شَيَّدوا التماثيلَ ليَغْنموا الجوائزَ والإكراميات، أمْ «منتَدَبو» النظام السوري الذين باركوا هذه الأحابيلَ النفاقية.. غاضّين النظرَ عمّا قد يجيء به الغد؟!

يا أمناءَ سوريا الحزينة: ما الذي فعلتْه سوريا لتستحقّ منكم كلَّ هذه الإهانات؟!

نسأل فحسب. نسأل.. ولا ننتظر جوابًا.

.. .. ..

أيضًا وأيضًا: نحن لسنا بُدلاءَ عن الله.

وإذا كان من واجبنا حقًّا حمايةُ لبنان، فمن واجبنا قبل ذلك التطلُّعُ إلى حماية سوريا. وإذا كانت النيّاتُ الخيّرة إزاء الشعب اللبناني هي ما دَفَعَنا إلى التحصّن في حديقة الجيران كلَّ هذه السنوات، والتشبُّثِ المفتوحِ بها وكأنّها الامتدادُ الشرعيُّ لحديقتنا الوطنية، فلنعترف الآن:

أنّ شعب سوريا أَوْلى وأحقُّ بمكرمة هذا المعروف (معروفِ العدالة والحرية والكرامة والثقة بالمستقبل والتأكيدِ على القيمة الإنسانية للمواطن وفكرته النبيلة عن مفهوم الوطن...). وبالتالي: إنّ مَنْ يحتاج إلى حمايةٍ ورعايةٍ ودعم النظام السياسي السوري هو شعبُ سوريا قبل الجميع. إنّ لقمةَ حياةٍ كريمة، وجرعةَ حريةٍ مَصُونةٍ وكريمة، وفُرصَ عيشٍ متكافئةً وكريمة، والنهوضَ بدولةِ قانونٍ يَرْدع ويحاسِب ويَحْمي، وإعادةَ الاعتبار إلى جامعاتٍ (أيُّ اهتراء!) قادرةٍ على مواكبة العصر الإنساني والارتقاءِ بقيم الثقافة والعقل، ومناهجَ تعليمٍ (أيةُ أميّةٍ مقنّعة!) تنتقل من تكتيكات محو الأمية إلى استراتيجياتِ إعادة تنسيب الإنسان إلى الزمن، وحريةَ تعبيرٍ مكفولةً، ومؤسساتٍ إعلاميةً منفتحةً مؤهّلةً للانتقال من حظيرة البلاغة إلى فضاء العقل المغامر والشجاع، و.... إلخ، إلخ، إلى آخره؛ ذلك ما يحتاجه شعبُ سوريا، وذلك ما ينتظره ويَجُوع إليه. أمّا شعب لبنان ـ أو سواه ـ فبإمكانه أن يتدبّر أمرَ نفسه.

أما نحن.. فمرّةً أخرى: لسنا بُدلاءَ عن الله. بل ربما **نحن** مَن هم الآن في حاجة إلى رأفته.

هل فات الأوان؟

آمل أنْ لا. ثمة متّسعٌ من الوقت للتصالح مع الحياة. متّسعٌ من الوقت؟! ربما، ولكنّ التاريخ لا يحبّ إطالةَ الانتظار.

II ـ ١٤ شباط ٢٠٠٥: «أُنجِزَ» اغتيالُ رفيق الحريري

أعترف أنّني لم أكن، في أيّ يوم مضى، مغرمًا بالرجل. ولكنّ مغزى الرسالة التي حَمَلها دويُّ الاغتيال الدراماتيكي وصلني: حان الآن موعدُ تسديد الاستحقاقات الأخيرة. حان موعدُ تنفيذ الحكم بإعدام سوريا.

لكنْ، مَنْ قتَلَ رفيق الحريري؟!

المطالبون بالثأر هَبّوا جميعًا، واثقين من متانة واتّساع مظلّة الحماية الدولية، ليؤكّدوا: «ما بَدْها ذكا.. معروفة...» وكانت الألسنةُ والأصابعُ كلُّها تشير إلى «المعروفة» سوريا.

في تلك اللحظة اكتَشَفَ الجميعُ أنّ لهم عدوًا ينبغي تأديبُه وسحقُه. وفي مثل تلك اللحظة ـ لحظةِ سعار الثأر ـ سيكون بوسع الجميع أن يُثْبتوا أنّ مَنْ صَلَبَ يسوعَ المسيح، وقَطَعَ رأسَ يوحنّا المعمدان، وقَتَلَ سپارتاكوس، وأَحْرق مراكبَ فينيقيا.. هي سوريا طبعًا.

ـ لكنْ، لماذا أنتم واثقون إلى هذه الدرجة من أنّ سوريا هي مَنْ «فَعَلَتْها»؟!

ـ لأنّنا نَرْغب، بل ومن مصلحتنا، «أن نكون واثقين» من أنّ مَنْ فَعَلها هي سوريا.

حسنًا، ربما تكون سوريا قد فعلتْها، لكنْ.. ربما آخرون أيضًا، وربما كاتبُ هذه السطور نفسه! ومع ذلك: «أُشنقوا سوريا» صاح الجميع. وعُقِدت الأنشوطة.

.. .. ..

قبل ألفيْ سنة من الآن كان اللبنانيون (أهلُ فينيقيا الممتدّة من جونية إلى الروشة، بالمعايير الجغرافية لسيّدنا مار مارون السوري) حاضرين أثناء محاكمة يسوع الناصري. وحين سألهم بيلاطس: «مَنْ تريدون أن يُصلبَ ؟ باراباس أم المسيح؟» صرخوا جميعًا، بفم واحد، وقلبٍ واحد، وخنجرٍ واحد:

«أُصلبوا سوريا.»

❖ ❖ ❖

حربُ الأعلام

فجأةً يكتشف اللبنانيون أنّ لديهم أعلامًا (أعلامًا لبنانيةً بحقّ) تَصْلح للتسلّح بها على مشارف ميدان الحرب! وفعلاً تبدأ الحربُ. حربٌ حمراء مدوّية.. وهتافاتٌ حمراء مدوّية مملّحةٌ بالكراهية وشهوة الدم:

«أُصلُبوا سوريا.»

لعلّهم على حقّ! بل لنعترفْ : لا أحد منهم يعنيه أن يكونوا على حقّ.

.. .. ..

مساء الأربعاء ٩ آذار وفق التقويم الدمشقي

تعود ناديا من مسيرة «أبناء عشيرتها» منهكةً، متوتّرةً وراضيةً، ممتشقةً عَلَمَها «السوري» المضمَّخ بدماء يسوع المسيح وسپارتاكوس ويوحنّا المعمدان وأمراءِ فينيقيا الأوائل (العَلَم الذي كانت، حتى ذلك الحين، ناسيةً شكلَه وألوانَه وعددَ نجومه). تُسْند عَلَمَها ـ رمحَ نقمتها الذابلَ الحزينَ ـ خلف الباب، وتتنهّد كمَنْ يقول: «أدّيتُ للوطنِ ما يستحقّ من ضرائبِ محبّته!»

هذه المرةَ لم أجد الحماسَ الكافي للسخرية منها ومن وطنيتها الباذخة، أنا الذي كنتُ أقول على الدوام لمن يتفاخرون بأعلامِ بلدانهم: إنّ خلف كلِّ علمٍ هويّةَ وحشٍ، ونابَ وحشٍ، ومصرَعَ وحش.

: العَلَم صورةُ تَجَبُّرِ الإنسان.. وصورةُ انحطاطه ويأسه أيضًا.

الآن ـ في شهوة ناديا للاحتماء بعَلَمِها ـ أَفْهم حنينَ الإنسان للعودة إلى القوقعة: إنها حيلته الأولى للاحتماء في كهف الوحش.

تمامًا كما لو أنها عائدةٌ من الحرب: تُسْند رمحَها في الزاوية وتتنهّد منتشيةً بمذاق نصرها الفقير. لعلّها أرادت أن تقول: نحن أيضًا لدينا أعلامٌ تَصلح للحروب والمطالبة بالثأر. لسنا أيتامًا ولا أبناءَ جَوارٍ. لدينا، مثلهم، أعلامٌ وهتافاتٌ وضوضاءُ عقائد؛ ومثلهم أيضًا.. لا تَنْقصنا صلافةُ المتعالي وزهوُ طالبِ الثأر.

فإذًا:

يحيا العلمُ /الخندقُ /الكهفُ /الجنونُ /نداءُ الموت.

يحيا الموت.

«بدأتْ حربُ الأعلام» قلتُ في داخل نفسي. وتذكّرتُ، دونما ضغينة، أعلامَ جيراننا «الآخرين،» هناك في ما صار يُدْعى ـ نكايةً بشهداء عروبتهم ـ ساحةَ الحرية.. حرية لبنان. ورنّتْ في أذنِ قلبي القولةُ السعيدةُ المظفّرة لصديقي پول شاول: الآن اكتشفتُ كم هو جميلٌ علم لبنان!

حقًا: كم هو جميلٌ العلم.. كلُّ علم! لكنْ، أيضًا: كم هي مريعةٌ فكرتُه والحاجةُ إليه! كم هو مريعٌ ارتدادُ الإنسان إلى ثقافة الحديد، وضوضاءِ العظمة، وصرخةِ العماءِ الأولى: صرخةِ هابيل وقاتله.

العَلَم الذي كان دلالةَ الفضاء والرحابة.. صار علامةَ القفص والانغلاق وثأريةِ نداء العقل: إنه الإيعازُ الأبلغُ لإطلاق رصاصة الحرب الأولى؛ ثم يأتي بعده البوقُ والبسطارُ والنشيد. بعدئذ يجيء دورُ السيّافين والقنّاصة وحفّاري قبور الموتى. وحينئذ ـ حينئذ دائمًا وتمامًا ـ يغدو بمقدور الإنسان، أيًا كان إلهُه أو عقيدتُه ـ أن يبرِّر لنفسه شهوةَ الوحش إلى الدم.. كلِّ دمٍ وأيِّ دم.

ما الذي فعله العمّال السوريون، وباعة الخضار السوريون... ليستحقّوا كلَّ هذا القدر من الكراهية والجنون وشهوة الانتقام؟

نعم، كم هو جميلٌ علمُ لبنان! لكنْ ما أجمله لو كان حقًا «عَلَمًا.»

كيف فات صديقَنا پول أنّ ذلك الـ «كَمْ هو جميل» لم يكن عَلَمًا واحدًا لجماعةٍ واحدة وشهوةِ حريةٍ واحدة وإرادةِ حياةٍ كريمةٍ واحدة. العَلَم الذي «كَمْ هو جميل» لم يكن حتى ليُفْصِحَ عن وجوهٍ وأصواتٍ حامليه، بل كان ـ في غالب الأحيان ـ يُخْفي ما أَبْدعه قدّيسو الوطن الجميل من مذابح.

ليس الهوية.. بل القناع: ذلك هو الجميلُ في العَلَم الذي «ما أجمله!» ذلك هو الجميل ـ القبيح ـ في كلّ عَلَمٍ يَنْهض على بُغْضاءِ العقيدة وسعارِ الدم. وفي أعلام بلادنا (في أعلام البلدان كلّها يا صديقي) ما أوفرَ الدمَ، وما أندر الرأفة! ما أعظمَ صيحةَ الموت، وما أوهنَ شهقةَ الحياة!!

صديقي وأخي پول، لا تزعلْ: هل كنتَ ستقول الكلمات نفسَها، عن العَلَمَ نفسه، لو أنّكَ شاهَدْتَه أولاً في تظاهرةِ «ثلاثاءِ الأغنام»؟!

ثم، صديقي وأخي پول (سامحْني واصفحْ عن مرارتي): إنّ الصيحة «الموحَّدة،» التي اشتعلتْ وما تزال تشتعل خلف العَلَم ـ القناع ـ الموحَّد، لم تكن أبدًا صيحةَ محبةٍ للوطن وناس الوطن، بل كانت ـ أَعْرف وتَعْرف ـ صيحةَ كراهيةِ «الآخر».. كلّ الآخر. وسامحْني أيضًا وأيضًا.

وأخيرًا، صديقي وأخي پول، لا تزعلْ: ذات يوم غير بعيد، سترى على كلّ شرفةِ بيتٍ عَلَمًا، وفي كل غرفة نوم خندقًا وحاجزَ ميليشيا، وتحت كلّ وسادةٍ خنجرًا وكتابَ صلاة. ذاتَ يوم أظنّك رأيتَه ونراه؛ ذات يوم «أتى ويأتي» ونشمُّ دعْسَتَه، منذ الآن، خلف باب المعبد.

يوم آخر في شباط/يوم الغفران

بعضٌ من أصدقائنا شعراء لبنان ـ أهلِ القلب ـ يتصدّقون، مشكورين حقًا، برسالةِ محبة موجَّهة إلى بضعة عشر نفرًا من أصدقائهم المثقفين السوريين «الحبّابين والأبرياء»!.. فاتهم أنّ مَنْ يستحق كلمةَ الحب هو «شعبُ سوريا» الذي يَعدّ عشرين مليونًا من البشر.. البشر الحبّابين الحقيقيين. وإذا كان ثمة مَنْ يستحقّ أن تُصبَّ عليه لعناتُ كراهيتهم بالفعل، فإنّ عليهم في هذه الحال أن يتوجّهوا بمعكوس هذه الرسالة إلى عشرين أو ثلاثين «موظّفًا» من الكبار ـ الصغار ـ الذين نُبْغضهم مثلما أَبْغضوهم. وإذا كان عليهم أن يتوجّهوا بالاعتذار عن فائض الكراهية الذي صُبّ على رؤوسنا وضمائرنا، فلعلّ من الأجدر والأجدى أن يعتذروا للعمّال وعابري السبيل السوريين (الأبرياء حقًا وصِدْقًا، والبشر حقًا وصِدْقًا) الذين اغتيلوا (أمْ يجب أن أقول: قُتلوا؟) برصاص وسكاكينِ التطرّف وسعارِ العنصرية وجنونِ محبة الأوطان (ما أقبح هذه الكلمة!).

لأصدقائنا هؤلاء نقول (والمحبة محفوظة بطبيعة الحال):

أُعفونا من فائض مغفرتكم. أُعفونا من الحنان والصفح وإنشاءِ الواجب. لسنا نحن، الآن، مَنْ يحتاج إلى التحية والتطمينات وتأكيد أواصر الودّ. وفّروا ذلك لجثامين إخوتنا وأبناءِ عمومتنا وأصدقائنا الذين ذُبحوا في الشوارع وتحت بطّانيات النوم وعلى مداخلِ وسقالاتِ الأبنية حيث يَعْملون ويعيشون ويَحْلمون.

ماتوا.. ولم يَخْرج صوتٌ من فم أحد!

مع ذلك، ثقوا أيها الأصدقاء: إنّ أيًا منكم، أنتم أبناءَ لبنان العظيم الذي أحببنا ونحبّ، لو واجهَتْه ـ هنا في سوريا كلِّها ـ إساءةٌ صغيرةٌ واحدة، بكلمةٍ أو هفوةِ لسانٍ أو غمزةِ عين، فلسوف يجد إلى جانبه عشرين مليونًا من البشر (لا بضعةَ عشر من المثقفين فحسب) مستعدّين، دفاعًا عن كرامته وكرامتهم، لاقتلاع قلبِ مَنْ يسيء إليه.. بأسنانهم!

ثم: ما الذي فعله العمّالُ السوريون، وباعةُ الخضار السوريون، وعشّاقُ جنّة لبنان السوريون، والمتسكّعون السوريون.. ليستحقّوا كلَّ هذا القدْر من الكراهية والجنون وشهوة الانتقام التي أوصلَتْهم إلى الموت تحت أبصار المثقفين وضمائرهم؟!

وَثِقُوا مرةً أخرى: إننا، نحن مثقفي سوريا المنفوخين ببلاغة الشعارات ودخانِ الشعائر، لَنَستحي حقًا وصِدقًا من مواجهة جاسوسٍ إسرائيلي بمثل هذه الفظاعة والدموية وعمى الثأر.

أمّا أنا، بلسان ضميري وقلبي، فأقول: إنّ أيًا من هؤلاء العمّال، فعّالةِ العَرَق والأحلام والرغيف، يستحقّ (لو كنتُ رئيسَ دولته) أن يُعاد إلى مَسْقط رأسه ـ لا مشحونًا كالبضاعة التالفة في الصناديق الخلفية للشاحنات ـ بل ملفوفًا بعلم بلاده الوطني، ومحمولاً على مئاتِ آلاف الأكفّ والقلوب، تمامًا كما يَليق برئيس وزراء دولة السويد... على أقلّ تقدير.

لكنْ، ما الذي بوسعنا عملُه، إذا كنّا ـ عمّالاً ومثقفين وعشّاقَ حياة ـ منكوبين على الدوام بشعوبٍ تنسى.. وسادةِ شعوبٍ يَصْفحون؟!

عصر «الكلاكيش».. وعنصرية الصمت

قلمُ ريمون جبارة يَصْدح في وجوه السوريين: «لُفّوا كلاكيشكم وفُلّوا!»

حسنًا، ها هُمْ يلمّون كلاكيشَهم.. ويفلّون.

لكنْ.. لا يقلْ لي أحدٌ منكم ـ إخوتَنا هناك ـ إنّ ريمون جبارة كان يتحدث بلسان نفسه فحسب، ويتوجّه بندائه الفولكلوري إلى رجالات الجيش السوري واستخباراته فحسب. كان صراحةً، وبملء الفم والقلم والقلب، يَقْصد «السوري.»

في هذا النداء «الوطني جدًا» تتجلّى أبلغُ الصيحات العنصرية وأشدُّها دمويةً وسفاهةً وسعارَ عقل. وحين أقول «العنصرية» لا أَقْصد فقط مَنْ قَتَلَ عاملاً أو أَحْرقَ خيمةً أو ذَبَحَ حارسَ مزرعة (إذْ، هنا، يُمْكن تَفَهُّمُ الاندفاعِ العاطفي الأحمق غيرِ القابل للسيطرة والكبح)، بل أقصد عنصريةَ الضمير والعقل.

العنصرية، في هذا السياق، كامنةٌ بصورة أعمق وأشمل وأحطّ لدى شغّيلة الثقافة والفنانين ونجوم الصحافة (الديموقراطية طبعًا) الذين صَمَتوا، أو باركوا، أو في أحسن الأحوال اكتفوْا بالهمس من وراء المتاريس: «لا يا شباب، حرام، هَدول عمّال مساكين ومقاطيع.. وبْيستاهلو منا شويّة عطف»...

أقلُّ من ذلك؟!

عيب يا أصدقاءَ الثقافة.

نعم، لم يكونوا يَصْرخون ضد النظام السوري (الذي أخلى المواقعَ وانتهيْنا...) بل، في كثير من الأحيان أو ربما في كلِّها، كانوا يَقْصدون «السوري»/العِرْق السوري!

مازلنا نتذكّر الحربَ الطاحنة التي شنّها مثقفو لبنان الحضارة على أدونيس، الفلاّح القليلِ الأصل. يومَها، لم تكن الحربُ الشاملةُ ضد «السوري» قد بدأتْ. وكان الجميع في لبنان ـ نقّادًا وشعراءَ ورُسُلَ مدنيّات ـ يتفاخرون أمام الكون كلّه بأنّ أدونيس شاعرٌ لبناني. وفجأةً... كفر الرجل. قال ما قاله حول بيروت/بيروت المتعددة/بيروت المتباينة الوجوه/بيروت الـ «أكثر من مدينة واحدة»... ما اعتبره الجميعُ إهانةً لبيروت الحاضنة وهجاءً لها؛ علْمًا بأنّ الرجل ـ بما عُرف عنه من عقلانية وتفتّح وعداءٍ للثوابت والوحدانيات والمفاهيم المغلقة ـ لم يوفّر مدينةً عربيةً من هجائه المرير... والمصيبِ في غالب الأحيان.

فجأةً تنبّه الجميعُ، وهبّ الجميعُ، وانتفض الجميعُ لدفع الإهانة. وفجأةً اكتشفوا أنّ الرجل مجرّد سوري، عَلَوي، عنصري، عاقّ، عديمُ الوفاء، متنكّر لخبز لبنان وملْحه، لبنان الذي صنعه، لبنان الذي آواه ورعاه وأَطعمه وكساه ومَدَّنه وعَلّمه الكتابةَ ـ أبجديةَ النور ـ وأَطْلقه في فضاء العالم.

بالله عليكم: ما هي العنصرية، إذًا، يا إخوتَنا في الثقافةِ والأحلامِ والأبجدية (لا؟!) والعقلِ ووحدةِ ضمير الإنسان؟

.. .. ..

فإذًا: احملوا كلاكيشكم أيّها «النَوَر» السوريون.. وارحلوا! (فاته أن يقول: زناختكم..).

ما قالوه عن «السوري» تَعَفَّفَ خطباءُ العروبة الصغار عن قوله بحقّ «ابنِ عمّهم» الإسرائيلي.

وها أنا الآن ـ تطوُّعًا ـ أُضيف وأُكْمل وأُفصّل في الإعراب:

أيُّها الهمج السوريون، احملوا كلاكيشَكم.. وارحلوا.

أيُّها العمّال السوريون، احملوا فؤوسَكم ورفوشَكم وزناخةَ عَرَقكم.. وارحلوا.

أيُّها الأثرياء السوريون، احملوا أموالَكم وودائعَكم المصرفية.. وارحلوا.

أيُّها الكتّاب السوريون، من أدونيس إلى غادة السمّان إلى ضيوف صحافة لبنان الحرّ.. المسامح.. الكريم، احملوا أقلامَكم وجقارتكم ورائحةَ رعيانكم.. وارحلوا.

ولترحلْ أيضًا عظامُ يوسف الخال ودماءُ كمال خير بك.

ولترحلْ أشلاءُ وغصّاتُ ودماءُ الجنود السوريين الذين ماتوا دفاعًا عن العَلَم الجميل وترابِه المثخن.

وليرحلْ ـ إذا شاء، وقبل أن يَحين موعدُ طرده ـ صديقُنا محمد علي الأتاسي ضيف **النهار** المحبوب والمكرَّم (وصدِّقْني يا أخي علي: أنتَ لست ضيفًا على قائمة الحب. أنت فقط مستثنًى، إلى حين، من قائمة الازدراء. وغدًا سيكتشفون «السوري» الصغيرَ المتنكِّرَ خلف ثيابك).

لكنْ، فقط، لتبقَ المطْربات والرقّاصات (بشرط أن يُتْقنّ اللغةَ الفينيقيةَ حصرًا)، لعلّ «شارعَ زيتونةٍ» جديدًا سيكون بحاجة إلى خدماتهنّ النبيلة في ميدان السياحة وتوطيد أواصر الأُخوّة مع أشقائنا «عربان» النفط المبجَّلين.

❖ ❖ ❖

ـ أنا ذاهب إلى بيروت.

صرختْ ناديا: لن تذهب. سيذبحونَكَ قبل أن تجتازَ طلعةَ «شتورا.»

ـ اطمئني، قلتُ لها. سأقول لهم: أنا شاعر معروف، مُعارِض لحزب البعث وللنظام الحاكم في سوريا. أَعْرف في لبنان وزراء، ونوّابًا، وشعراء، ومفكّرين، ورؤساءَ تحرير صحف، وقادةَ أحزاب، وزعماءَ طوائف محترمين، و.....

تحت راية مَنْ سيتوحّد لبنان؟ أتحت راية «البيك» الاشتراكي، أم تحت راية لبنان «الديموقراطي» الذي يبشّر به جزّارو الأمس؟

ـ لن تذهبْ، قالت. ربما يكون أحدُ معارفك متعاطفًا مع السوريين، أو على خلافٍ ما مع جماعة المعارضة.

ـ سأقول لهم: أنا صديق زياد الرحباني.

صَفَنَتْ قليلاً.. ثم:

ـ لذلك لن تذهب. نسيتَ حاجزَ البربارة؟ سيذبحونَكَ قبل أن يَطْرحوا السؤالَ الأول.

لعلّها على حق. طبعًا لن أذهب.

❖ ❖ ❖

منذ خمسين سنة وأنا أَحْفظ عن ظهر قلب (ما ألطفَ هذا التعبير!) أسماءَ قرى وبلدات لبنان: شَدْرا، منيارة، أنطلياس، راشيّا، عندقت، القليْعات، مرجعيون، دير القمر، وادي شحرور (التحتا أو الفوقا؟) إلخ....

كان جدّي السوري، ابنُ مرمريتا، «معمرجيًا،» يعني: معلِّم عمار. ما من قرية في لبنان إلاّ وبنى فيها بيتًا أو بيوتًا، وزَرَعَ بين جدرانها صداقات (لم يكن يقول «بكرا رايحين عَ لبنان...» بل: «رايحين قِبْلي»).

حتى الآن لم أزُرْ أيًا من المواقع التي عمل فيها جدّي وتَرَكَ على حجارةٍ وعتباتِ بيوتها بصماتِ قلبه وأصابعه وعينيْه وعاطفته. (اشتقت لاسم جدّي: المعلّم أبو سليمان).

عاش جدّي مئةً وثلاثَ سنوات، وغادر الحياة قبل خمس ـ ستّ سنوات لا أكثر.

الآن أقول في نفسي: الحمد لله. لو قُدِّر لجدّي أن يعيش في مثل هذه الأيام، فلربما قتلوه ـ مثلَ خاله المسيح ـ في الثالثة والثلاثين.

لبنان الواحد، لبنان الأمل

أتنصّت إلى هتافات «الحرية» في ساحة الحرية، فلا يبقى في أذني غيرُ الضوضاء وصليلِ التوعّدات وأصداءِ الكراهية.

الكلّ يتحدث عن لبنان السيّد، الحرّ، المستقلّ، الموحّد: لبنان الأمل.

في بلادٍ يُمْكن مباراةَ رجلٍ أن تهدِّد سلامَها الأهلي، من أين سيُجاء بهذا اللبنان المعجزة؟ وكيف سيُتَّفق على صناعته؟!

تحت رايةِ مَنْ سيتوحّد لبنان؟

أتحت رايةِ «البيك» التقدّمي الاشتراكي؟ (باللهِ عليكَ، يا عمّي كارل ماركس، أعربْ لنا هذه الأحجيّة: «البيك الاشتراكي!»)

أمْ تحت راية لبنان «الديموقراطي» الذي يبشِّر به جزّارو الأمس المتنكّرون خلف أعلامهم، والمثْقَلةُ أعناقُهم بدماء آلاف القتلى من أشقّاء البيت الواحد؟

أمْ لبنان «الحضارة» الذي يتنادى إلى بعثه أباطرةُ الميليشيات والحواجز الطيّارة والذبح على الهوية؟

أمْ لبنان قداسة «البَطْرَك» حفيدِ المسيح المفطوم على المحبة، الذي تستطيع فتوى صغيرةٌ منه أن تُقِيم قيامةَ الوطن ورُكّابِ سفينته؟

أمْ لبنان الطوائف، والعصبيات، والأصنام المحنَّطين، ومحتكِري غنائم السياسة بنعمة التوريث العائلي؟.. (هم يستهجنون التوريثَ السوري!)

أمْ هو لبنان الكراهية.. كراهية السوري؟!

نعم، على هذا متّفقون. لكنّ الكراهية وحدها ـ لسوريا أو سواها ـ لا تكفي لصناعةِ دولةٍ وتأسيسِ مستقبلٍ وبناءِ حياة.

أمْ لعلّه فقط «لبنان يا قِطعة سما..» فيما الجميع ـ وهم يتغزّلون بالسماء ـ يَحْتقرون الأرضَ وما عليها وما تحتها؟!

مع ذلك: «لبنان يا قطعة سما...»

لكنّ سماوات الله واسعةٌ وكثيرةٌ وزرقاءُ كلُّها. ولكلٍّ حصّتُه الكافيةُ من السماء لإطلاق الأناشيد والأعلام والرصاص.

❖ ❖ ❖

: «المستقبل مفتوح للجميع، والوطن بيت الجميع...»/الجميع الذين هم: «نحن.»

لعلّ ذلك ما يعنيه فقيهُ السياسة الذي يتغنّى بحقّ الجميع على شاشة التلفزيون!

ثمة مَنْ يسأل: حتى لو عاد إقليدس العظيمُ إلى الحياة، كيف يمكن قسمةُ «الجميع» على اثنين؟!

مع ذلك: إنه الأمل...

❖ ❖ ❖

شهرٌ.. وأكثر. ودمُ رفيق الحريري يَصْعد ويَصْعد في بورصة مقاولي السياسة وصيّادي الفجائع!

الجميع يدّعي صلةَ الرَّحِم. الجميع يَطْلب حقَّ إضافةِ «الدمِ» إلى رصيده!

ولِمَ لا؟ فالدم، مثله مثل المال، رصيدٌ قابلٌ للاستثمار.

ألم أقلْ لكم؟:

السياسةُ فنُّ المتاجرة بالعار.

الدخول/الخروج (الغزو/الجلاء)

لعلّ أحدًا سيلمِّح (لَمَحوا وقُضي الأمرُ) إلى أنّ كاتبَ هذه اليوميات سَقَطَ أخيرًا في مصيدة النظام السوري.

لهؤلاء أقول: تذكّروا. حين دخل الجيشُ السوري إلى لبنان ـ مستَنجَدًا به من اللبنانيين أنفسهم الذين يتبارَوْن الآن في شتيمته ـ كنّا، نحن مثقفي سوريا وكتّابَها، من أوائلَ المعارضين لذلك «الدخول» الذي نَدْفع جميعًا ثمنَه الآن.. ومضاعَفًا (نَدْفع الكرامةَ بعد أن دَفَعنا الدم). ولعلّ أصدقاءنا، هناك تحت قطعة السما، يتذكّرون البيانَ الذي أصدرناه موقَّعًا بأسمائنا الصريحة، أيامَ كان التنفّسُ وحده ـ لا القولُ والفعلُ ـ كافيًا لإنزال العقوبة، مطالِبين فيه بعدم التورّط في ما يرُوقُ لي الآن أن أسمِّيه «مستنقعَ» لبنان الأبيّ الموحَّد الحضاري. ولعلّهم يتذكّرون (أمّا نحن فنسينا) أنّ بعضًا ممّن وَقّعوا سَدّدوا ضريبةَ ذلك البيان ـ الموقف.. مِنْ لقمةِ حياتهم ولقمةِ أمنهم ولقمةِ كرامتهم الإنسانية.

أما وأنّ ما حَصَلَ قد حصل (ويا لَفَداحة ما ترتّب عليه!)، فإنّ من حقّنا نحن أيضًا، الآن، أن نطالب مثلما يطالبون.. بمعرفة الحقيقة. لكم ـ هناك ـ حقيقتُكم التي تَصْرخون مطالبين بكشف أسرارها وخفاياها، ولنا أيضًا ـ هنا ـ حقيقتُنا الأخرى التي نطالب بكشفها وتبرير دواعيها (لا يُذكّرْنا أحدٌ بعدُ بقداسة التراب الموحّد!).

نريد أن يجيبَنا أحدٌ: لماذا يَخْرج جيشُنا الآن بهذه الصورة الموجعة؟

هل كانت إهانةُ المواطنين المستضعَفين (وبعضُهم أصدقاء نَعْرفهم) جزءًا من مهمتنا في لبنان؟

هل كان الابتزازُ، بشتّى صوره، جزءًا من هذه المهمة؟

هل التطاولُ على البشر كان جزءًا من المهمة؟

هل الإساءةُ إلى صورة الجندي ـ حارسِ الحياة والكرامة والأمن ـ كانت جزءًا من المهمة؟

هل كان العبثُ بالموازين ـ لمصلحةِ هذا أو ذاك، وضدّ مصلحةِ هذا أو ذاك ـ جزءًا من المهمة؟

هل كانت التجاوزاتُ والانتهاكاتُ والـ «خوّاتُ» كما يسمّيها اللبنانيون، التي تحوّلتْ سبّةً تُقذف في وجه كلّ مواطن سوري يزور لبنانَ ويتمشّى في شوارعه ويروِّح عن نفسه في كازينوهاته ومقاهيه... جزءًا من تلك المهمة؟

هل.. وهل... وهل...؟ وفي الفم ماءٌ كثير وحصًى كثير.

نعم. نحن أيضًا، هنا، نَرْغب في معرفة الحقيقة: حقيقة الأسباب الغامضة ـ الصريحة ـ التي جَعَلتْ كلمةَ «سوري» هناك تعادل الشتيمةَ. حقيقة الإهانات كلّها، والتجاوزات كلّها، والاستعلاءات كلّها، والإيذاءات كلّها، وإساءات التقدير كلّها، والأخطاء ـ بل الخطايا المميتة ـ كلّها وكلّها وكلّها...

ثمة جرحٌ، جرحُ كرامةٍ عميقٌ ومزمن، ونريد لهذا الجرح أن يلتئم.

الحقيقة؟

نعم. بل وأكثر: المحاسبة، ودفع ثمن آلام الضمير وتصدُّعات العقل والقلب.

تعالوْا إذًا ـ نقول لأولياء أمورنا في هذا البيت ـ لنحاول معًا تضميدَ جرح الكرامة هذا. وَثِقُوا: إنّ أيّ زعيم وطني يساعدنا على تضميد هذا الجرح الخبيث ـ بالمصارحة الحقيقية والتكاشف المخلص ـ سيفوز، الآن وغدًا، بنسبة ٩٩٪ من أصوات الناس وقلوبهم.

❖ ❖ ❖

ـ ما أثمنُ شيءٍ في بلادكم أيها المواطنون؟

ـ التراب الذي يَقْضمه الغرباءُ، والكرامةُ التي يلتهمها رعاةُ البيت.

ـ ودماءُ الناس؟

ـ أمّا هذه فلا. أَنْفقنا منها الكثيرَ.. فما عادت تُفيدنا إلا في إحصاء الهزائم، وتلطيفِ مذاقِ الندم، وعملياتِ تجميلِ الأخطاء.

❖ ❖ ❖

عَلَمُ «ناديا» لا يزال مركونًا في زاوية الصالة: خَفَتَتْ حماسةُ الاستعراض، والضوضاءُ تبخّرتْ.

ملفوفٌ ـ عَلَمُها ـ وبعيدٌ عن الأنظار، كي لا تتأذّى مشاعرُ جارتها «اللبنانية الأصل» التي انكفأتْ هي الأخرى، منذ أكثر من شهر، حابسةً نَفَسَها خلف باب بيتها المقابل تمامًا لباب جارتها «السورية»؛ أولاً: لتتحاشى إفسادَ يومها برؤية وجوه الأعداء، وأولاً أيضًا: لتستمتعَ، حتى آخرِ قطرةٍ من الوقت، بجمالِ أعلامِ بلادها التي تملأ وتُضوّئ جميعَ الشاشات.

الصورة جليّةٌ وموجعة:

ما كنّا نسمّيه شعبًا واحدًا في بلدين.. تحوّلَ فجأةً شعبَيْنِ في عمارةٍ واحدة.

: مرحى لجميعكم.

.. ..

ما كنّا نسمّيه شعبًا واحدًا في بلدين... تحوّل فجأةً شعبين في عمارة واحدة!

جرحٌ غيرُ قابل للالتئام؟!

بلى. يَلْزمه الكثيرُ من الوقت، الكثيرُ من الصداقة، الكثيرُ من شجاعة الوجدان، والكثيرُ من الـ..../لا. فالأمل ممنوع.

❖ ❖ ❖

على أنّنا نتشابه في كثيرٍ ونتفق على كثير...؛ اطمئنّوا يا جميعَكُم.

جبران تويني الديموقراطي يتحدث، مِنْ هناك، عن الغَنَم!

وعبقريُّ معسكرنا الفذّ عماد فوزي الشعيبي، عميدُ الإنشاء الرثّ، يَصْدح ـ من هنا ـ مستهجنًا الحالةَ «القطيعيةَ» لدى الآخرين.

نعم، هكذا نَخْرج من مهرجانِ اللغو متعادلين بنقاط العار:

صفرٌ في مادةِ الإنشاء.

صفرٌ في مادة آداب التخاطب.

صفرٌ في موادّ الجغرافية والتاريخ وعلومِ تطوّرِ المخلوقات.

وصفرٌ كبيرٌ في الأمل.

: مرحى لجميعكم.

❖ ❖ ❖

هل قلتُ: «الأمل ممنوع»؟

بلى. ولكنني، إذ أَسْتحضر أصواتَ ووجوهَ كثيرين من أصدقائنا ـ هناك ـ أَسْتعيد بعضًا، أو كثيرًا، من الثقة المفقودة بضمير الإنسان.

على أصواتٍ كهذه، وعلى أصواتٍ أخرى كثيرةٍ، مبرَّأةٍ من ڤيروسات الكراهية والجشع والكسل الروحي، يُمْكن الإيمانُ ببعضِ الأمل.

❖ ❖ ❖

غدًا، تقول ناديا، ستَقْرع بابَ جارتها اللبنانية.

غدًا، ربّما، ينتهي حِدادُ طالبي الثأر.

غدًا، ربّما، ينتهي عرسُ المتاجرين بالعار.

وغدًا، ربّما، تنتصر «صباحُ الخير» على شهوةِ السكّين.

دمشق

نزيه أبو عفش

شاعر سوري. آخر إصداراته: **إنجيل الأعمى** (دار الآداب).